الباب الأول

نشأة بيبرس

---

١ — ظهور المماليك فى مصر .

٢ — بيبرس قبل اتصاله بالملك الصالح أيوب .

٣ — بيبرس منذ اتصاله بالملك الصالح إلى أن انتصر على الصليبيين بمصر .

الباب الاول
نشـــأة بيـــبرس

١ — ظهـــور المـــاليك فى مصر

يجمل بنا قبل أن نمضى فى الكلام عن حياة بيبرس أن نوجز القول عن ظهور المـاليك فى مصر . ولا بأس من أن نرجع قليـلا الى تاريخ الدولة العباسـية التى وضعت الأساس الأوّل لاستخدام عناصر أجنبية تقوم بإدارة الدولة دون الاعتماد على عصبيتها . تلك السنة التى كان لها أكبر الأثر فى اضمحلالها والتى درج عليها بقية الدول الاسلامية بعدها .

قامت الدولة العباسية فى مبدأ أمرها على أكتاف الفرس[1] . ومن ثم كان لهم الحظوة التامة عند الخلفاء العباسيين . فقد ألقوا اليهم مقاليد الدولة كما عهدوا اليهم بالشئون الخطيرة فيهـا كالوزارة والحجابة وما الى ذلك من مهام الدولة . نرى ذلك جليا فى بيتى بنى برمك وبنى سهل . بيد أن هؤلاء الفرس لم يقفوا عند هذا الحدّ . بل أخذوا فى سلب السلطة تدريجيا من أيدى الخلفاء العباسيين . ولقد شعر بذلك بعضهم فأوقع بهم قبـل أن يوقعوا به وأدرك العباسيون أنهم فى الواقع مع الفرس كالمستجير من الرمضاء بالنار ؛ ذلك أنهـم أبعدوا العرب عن مناصب الدولة ولم يعـد فى استطاعة الخلفاء أن يعيدوهم الى ما كانوا عليـه من سلطة ونفوذ ولم يبق أمامهم إلا البحث عن عنصر جديد بعيد عن أهواء العرب السياسية ومصالح الفرس الخاصـة . فلجأوا الى العنصر التركى لاعتقادهم أنه مجرّد من الطموح الذى امتاز به الفرس والعصبية التى عرف بهـا العرب . وهـذه السياسة نراها واضحة فى عهـد

(١) Sir William Muir, The Caliphate, its Rise, Decline and Fall, p.433.

المعتصم[١] الذى اصطنع الأتراك واستخدمهم فى جيشه وعهد اليهم بولاية الأقاليم؛ غير أنه سرعان ماظهر خطأ هذه السياسة فتدخل هؤلاء الأتراك على مر الأيام فى تولية الخليفة وعزله اذا لم يحز رضاهم . ظهر ذلك جليا بعد وفاة الواثق (٢٣٢ هـ) حيث عرض عليهم ابنه فلم يوافقوا على توليته لصغر سنه ثم أشير عليهم بجعفر بن المعتصم فلقى هذا الاختيار قبولا لديهم[٢]؛ ومن ثم لم يجد الناس بدا من مبايعته .

وهكذا صار أمر الخلافة بأيدى هؤلاء الأتراك . وهذا يفسر لنا طمع الأمراء واستقلالهم بالأقاليم الاسلامية الأمر الذى أضعف الخلافة العباسية وأدى الى سقوطها فى النهاية على أيدى التتار سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) .

وأما استخدام المماليك فى مصر فانه يرجع الى أيام الدولة الطولونية (٢٥٤ — ٢٩٢ هـ)؛ [٨٦٨ — ٩٠٥ م] . فقد اشترى أحمد بن طولون مؤسس هذه الدولة المماليك من الديالمة ليقوى بهم جيشه . وقد ذكر ابن إياس[٣] أن عدد هؤلاء المماليك وصل الى أربعة وعشرين ألف مملوك . ثم جاءت الدولة الاخشيدية (٣٢٣ — ٣٥٨ هـ)؛ [٩٣٥ — ٩٦٩ م] وعلى رأسها محمد بن طغج الاخشيد . وكان معظم الجيش فى عهده وعهد من جاء بعده من أولاده من الأتراك والديلم . ويروى لنا أبو المحاسن[٤] "أنه كان متجملا فى موكبه وملبسه . فكان موكبه يضاهى موكب الخلافة وبلغت عدة مماليكه ثمانية آلاف مملوك" . ولما جاء الفاطميون الى مصر (٣٥٨ — ٥٦٧ هـ)؛ [٩٦٩ — ١١٧١ م] وأسسوا بها دولتهم ساروا على طريقة العباسيين فى الاعتماد على غير أبناء جنسهم وأصبح جيشهم يتألف من عدة عناصر أهمها :

---

(١) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢١١ ؛ السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٢٣ ؛ Sir William Muir, The Caliphate. p. 513 .

(٢) Sir William Muir. Op. Cit. p. 523.

(٣) تاريخ مصر : ج ١ ص ٣٧

(٤) النجوم الزاهرة (طبعة دار الكتب) ج ٣ ص ٢٥٦

(١) المغاربة الذين قامت على أكتافهم هذه الدولة فى بلاد المغرب .

(٢) السودان الذين استكثر منهم الخلفاء منذ أيام المستنصر .

(٣) الأتراك الذين اشـتراهم الخلفـاء المتأخرون ليكونوا عماد جيشهم وعلى الأخص بعـد خروج بلاد المغرب عن سلطانهم فى عهـد الخليفة المستنصر (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ) . وعلى يد هؤلاء كان انحـلال الدولة الفاطمية وزوالهـا سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) وذلك بسبب قيام العـداء بينهم و بين السودان من جهة والتنافس بين رجالهم على الوزارة من جهة أخرى واستعانة بعضهم بالصليبيين ممـا أوجب تدخل نور الدين محمود صاحب دمشق فى أمر مصر وإرساله الجيوش مع أسد الدين شيركوه وابن أخيـه صلاح الدين يوسف بن أيوب . فقضوا على البقية الباقية من استقلال الخلفاء الفاطميين .

وقـد نجح صلاح الدين فى توطيد سلطته فى مصر وانضـوى تحت لوائه كل رجالات الدولة وسقطت الى الحضيض سلطة العاضـد آخر الخلفـاء الفاطميين . وعلى أثر وفاة هذا الخليفة تم استقلال صلاح الدين[1] مؤسس الدولة الأيوبية فى مصر (٥٦٧ — ٦٤٨ هـ) ، [١١٧١ — ١٢٥٠ م] ولم يكن سلاطينها مصريين — كما نعـلم — بل كانوا أجانب عن هذه البلاد . جاءوا إليها من أذربيجان[2] ، وقد عملوا على جلب الأتراك إليها و بذلوا الأموال الضخمة فى شرائهم بغية الاعتزاز بقوتهم .

---

(١) كان صلاح الدين قد تولى الوزارة بعد وفاة شيركوه و بدأ عمله بالانتصار على الفرنجة فى دمياط فاعتبره المصريون حاميا لهم ثم عمل تدريجيا على تقوية مركزه فى مصر . فأرسل اليـه نور الدين يرغبه فى إحلال اسم الخليفة العباسى فى الخطبة محل الخليفة الفاطمى . غير أن صلاح الدين تردّد فى تنفيذ هذه الرغبـة حتى لا يثير أهالى مصر . وكان الخليفة فى ذلك الوقت مريضا . فعقد صـلاح الدين مجلسا من الأمراء استشارهم فى ذكر اسم الخليفة العباسى فى الخطبة فوافقه بعضهم وتردّد البعض الآخر وكان فى هذا المجلس رجل فارسى اعتزم أن يتولى بنفسه هـذا الأمر فصعد المنبر ودعا للمستضىء العباسى . ولما لم يحتج أحد على ذلك أمر صلاح الدين بأن يخطب الخطباء باسم الخليفة العباسى . و بعد أيام قلائل توفى الخليفة العاضد فاستولى صلاح الدين على قصره وسقطت بذلك الدولة الفاطمية . الفاطميون فى مصر : الدكتور حسن ابراهيم ص ٣٠٨ و ٣١١ — ٣١٢ (٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ٦٩

وكان أكثر الأيوبيين استجلابا لهذه الطائفة الملك الصالح نجم الدين أيوب . فقد روى لنا أبو المحاسن[١] وابن إياس[٢] أن الصالح أكثر من شراء المماليك بعد أن آل إليه حكم مصر حتى كان عامة عسكره منهم . ولما خذله أنصاره وانفض عنه أعوانه من الأكراد وجد فيهم عدته فاعتز بهم وأكثر من شرائهم ؛ فتكون عنده منهم جمع غفير زاحموا أهل البلاد وسرعان ما انتشر بينهم الفساد حتى ضج الأهلون وقال فى ذلك بعض الشعراء :

الصالح المرتضى أيوبُ أكثر من ... ترك بدولته يا شر مجلوب
قد أخذ الله أيوبا بفعلته ... فالناس قد أصبحوا فى ضر أيوب

يشير الشاعر بذلك إلى قوله تعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ . [سورة الأنبياء]

٢ ـ بيبرس قبل اتصاله بالملك الصالح أيوب

نبغ من بين المماليك الذين استكثر منهم الملك الصالح عدة رجال كان لهم أثر كبير فى تغيير مجرى السياسة المصرية نخص بالذكر منهم بيبرس ذلك المملوك الذى أصبح فيما بعد سلطانا على مصر وعم صيته أكثر بقاع الأرض وصار بعد وفاته موضع حديث الناس وسمرهم يتغنى المصريون بأخباره ويترنمون بما قدم لهم ولممالك الإسلام عامة من جليل الأثر وعظيم المفاخر .

وعلى الرغم من أن بيبرس قام بكثير من الأعمال الجليلة التى خلدت ذكره فانا لا نجد له فى كتب التاريخ ما يشفى الغلة عن تفاصيل حياته الأولى ولا ما يكشف لنا القناع عن تطوراته منذ ولد إلى أن بيع فى البلاد الشامية . نعم لن يضيرنا ذلك فى مثل بيبرس الذى فاق من تقدمه من الملوك والسلاطين بمواجهة الأخطار المحدقة

(١) النجوم الزاهرة : ج ٣ القسم الأول ورقة ١٧٥
(٢) بدائع الزهور : ج ١ ص ٨٣

بشرق البـلاد الإسلامية وغربها ، و بذل كل ما لديه من عدّة لإيقاف هـذا التيار الجارف ورد هؤلاء المغيرين على أعقابهـم حتى كتب له النصر عليهـم ورد كيدهم فى نحورهم ، وكوّن مملكة متحدة الأواصر مرتبطة العرى من تلك الأقطار التى امتدّ إليها نفـوذ الصليبيين والتى شملها استبداد الأمم التتارية ولاقت من صنوف الأذى ما جعلها ترحب بكل من مدّ لهـا يد المساعدة لينتشلها من هـذه الهوّة السحيقة التى سقطت فيها .

وقـد أجمع المؤرّخون على أنه ولد ببلاد القفجاق[1] وقضى بهـا شطرا من حياته الأولى إلى أن بيع لأحد تجار الرقيق على أثر هجوم المغول على هذه البلاد سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م) . غير أنهم اختلفوا فى الجهة التى بيع فيها بعد ارتحاله عن موطنه .

يحدّثنا المقريزى[2] أن تاجرا قدم به إلى حماه . ولمـا عرضه على الملك المنصور محمد لم يعجبه[3] فبيع بدمشق بثمانمائة درهم ثم ردّه مشتريه لبياض فى إحدى عينيه ؛ فاشـتراه الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار[4] مملوك الملك الصـالح نجم الدين أيوب وهو معتقل بحماه وأقام فى خدمته مدّة ثم أخذه منه الملك الصالح .

---

(١) تشمل بلاد القفجاق حوض الفلجا والأراضى التى حول بحر قزوين .

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك ، طبعة الدكتور زيادة ج ١ القسم الثانى ص ٦٣٧

(٣) أورد ابن واصل "مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب" ج ٢ ص ٤٤٠ ب ، فى هذا الصدد قصة طريفة عن سبب رفض الملك المنصور شراء بيبرس ثم ذكر ما حدث لبيبرس بعد ذلك مفصلا . وهاك نصها مع بعض التصرف : "وكان السلطان الملك المنصور إذ ذاك فى سن الصبا . وكان من عادته أنه متى أراد شراء رقيق أحضر لقراه الصاحبة والدته فمن أشارت بإقباعه أخذ . وكان الملك المنصور لما بلغه وصول الملك الظاهر مع التاجر تقدّم باحضاره فأحضر ومعه خشداش له وعرضا على الصاحبة فرأتهما من داخل الستارة . فلما استأذنها السلطان ولدها فى شرائهما . قالت له : خذ المملوك الأبيض والأسمر لا يكون بينك و بينه معاملة (يعنى الملك الظاهر) فان عينيه فيها الشر لايح . فردّهما على التاجر . ولما بلغ الأمير علاء الدين البندقدار حضور هذين المملوكين اللذين جلبا بعث فى طلبهما . وعند ما قدما إليه اشتراهما وهو فى الاعتقال وظلا عنده حتى أفرج الملك الصالح نجم الدين أيوب عنه وتوجه بهما إلى مصر فأخذهما الملك الصالح منه" .

(٤) البندقدار : هو حامل الجراوه (كيس البنـدق) خلف السلطان أو الأمير . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ٤١٥ ج ٥ ص ٤٥٨

ويروى الشيخ قطب الدين اليونينى المتوفى سنة ٧٢٦ هـ فى كتابه "الذيل على مرآة الزمان"[١] وأبو المحاسن المتوفى سنة ٨٧٤ هـ فى كتابه "النجوم الزاهرة"[٢] عن هذه المسألة رواية يستفاد منها أن بيبرس قدم إلى سيواس على أثر بيعه ببلاده ثم نقل إلى حلب وبيع بعد ذلك بالقاهرة للأمير علاء الدين أيدكين البندقدار وظل عنده حتى أخذه منه الملك الصالح عند ما قبض عليه فى شوال سنة ٦٤٤ هـ[٣].

وبينما تتضارب الروايات فى تاريخ مولده[٤]، وفى الزمن الذى بيع فيه الى علاء الدين وفى أى بلد كان ذلك البيع فاننا لا نجد فيها جميعها شيئا ذا غناء، اللهم إلا منذ ذلك الوقت الذى دخل فيه فى حوزة الملك الصالح نجم الدين أيوب . ومن هنا نرى له الكثير فى كتب التاريخ وسنعرض لذلك بشىء من الإسهاب .

٣ — بيبرس منذ اتصاله بالملك الصالح إلى أن انتصر على الصليبيين بمصر

بدأ بيبرس على أثر انتقاله الى ملك الملك الصالح[٥] حياة جديدة تغاير تمام المغايرة

(١) ج ١٧ ورقة ٩٨/ (٢) ج ٣ القسم الثانى ورقة ٢٣٢ (٣) هناك عبارة وجهها رسول أيغا ملك التتار للظاهر بيبرس عند ماقدم إليه للفاوضة معه فى عقد الصلح سنة ٦٦٧ هـ يفهم منها أن بيبرس بيع بسيواس وهذه العبارة هى : "أنت مملوك وأبعت فى سيواس فكيف تشاقق الملوك ملوك الأرض" . المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٧٣ — ٥٧٤ (٤) ورد فى (Enc. Isl. Art. Baibars I) أن بيبرس ولد سنة ٦٢٢ هـ . وهذا يخالف ما رواه أبو المحاسن ج ٣ القسم الثانى ورقة ٢٣٢ من أنه ولد سنة ٦٢٥ هـ . (٥) كان الصالح أيوب قد أعطاه أبوه الملك الكامل حصن كيفا وسيره إليه سنة ٦٣٠ هـ . وقد قصد بهذا أن يبعده عن مصر فيخلو بذلك الجو له ولولده العادل ولى العهد من بعده . المقريزى : السلوك ج ١ القسم الأول ص ٢٤٤

ولما توفى الملك الكامل سنة ٦٣٥ هـ بدمشق اتفق رأى الأمراء بمصر على أن يولوا ابنه الأمير أبا بكر ولقبوه بالملك العادل فاستاء لذلك الملك الصالح وانتهز فرصة استدعاء المصريين له وهم بمغادرة الشام الى مصر ليستولى عليها فاعتقله الناصر داود صاحب الكرك بنابلس وما لبث أن أطلق سراحه وحالف معه على أن تكون مصر للصالح أيوب والشام للناصر . وفى هذه الأثناء كانت قد دبرت مؤامرة بمصر لخلع الملك العادل واتفق المماليك الكاملية على استدعاء الملك الصالح فسار ومعه مماليكه الى مصر وأعلن نفسه سلطانا عليها سنة ٦٣٧ هـ . وقبض على أخيه العادل وظل فى السجن حتى مات سنة ٦٤٥ هـ . المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٢٦٧ و ٢٩٤ — ٢٩٦

ما كان عليه فى حياته الأولى من يوم أن وصل الى بلاد الشام . فقـد اتخذه الملك الصالح سـنة ٦٤٤ هـ (١٢٤٦ م) رئيسا لإحدى فرق حرسـه الخاص[1] لما رآه فيه من الهمة الشماء والفطنة والذكاء، وظـل يرتفع ذكره ويسمو قدره ويتدرّج فى المناصب حتى أصبح قائدا لفرقة المماليك التى كان لها الفضل الأكبر فى صدّ حملة لويس التاسع عن مصر .

وقبل أن نتكلم عن الدور الذى قام به بيبرس فى صدّ هذه الحملة يجمل بنـا أن نذكر شيئا عن سبب قيامها والعقبات التى صادفتها حتى اشترك بيبرس فى صدّها :

لمـا انقضت الجيوش الخوارزمية[2] على سوريا سـنة ١٢٤٤ م وخربت بيت المقـدس أثار ذلك ملوك أوربا واتجهت مجهودات لويس التاسع ملك فرنسا الى تجهيز حملة صليبية لمهاجمة مصر يقودها بنفسه ويكون عمادها الفرنسيون[3] . غير أن هـذه الحملة لم تلبث أن عصفت بها العواصف عنـد مرورها بقبرس فى أوائل سـنة ١٢٤٩ م . فجنح أكثر من نصف سفنهـا الى سواحل الشام ولم يصل منها سوى سبعمائة قطعة، ونزح سكان دمياط الى منزلة المنصورة على أثر ظهور سفن الملك لويس التـاسع وتركـوا مراكب التعـدية فعـبرت جيوش لويس عليهـا بدون عنـاء[4] .

وعلى الرغم من ذلك فقد أخطأ قائد تلك الحملة بتأخره فى التقدّم جنوبا إذ كان يجب عليه أن يتقدّم بسرعة نحو القاهرة قبل حلول زمن الفيضان وقبل أن يفيق

---

(١) Enc. Isl. Art Baibars I.

(٢) هؤلاء الخوارزمية هم عسكر جلال الدين الخوارزمى . وقد ساروا بعـد مقتله إلى كيقباذ ملك روم السلاجقة ثم فارقوه لما قبض على أكبر مقدّميهم، فاستمالهم الصالح أيوب واستأذن أباه الملك الكامل باستخدامهم فى جيشه فأذن له بذلك - أبو الفدا : ج ٣ ص ١٥٩

(٣) Stevenson, The Crusaders in the East. pp. 324-326.

(٤) Davis, The Invasion of Egypt by Louis IX of France p. 2; Joinville, Memoirs of the Crusades p. 116.

المسلمون من صدمة الفرار عن دمياط . وبدلا من التقدم بسرعة ضرب الملك لويس خيامه وظل ينتظر وصول المراكب التى بعثرتها العواصف ، ثم تقدمت جيوشه من دمياط فى طريقهم الى القاهرة بعد أن أقامت فيها ستة شهور . غير أن جهلها الطريق كان سببا فى تأخيرها فاستغرقت شهرا كاملا فى قطع الطريق بين دمياط ومنزلة المنصورة وهو لا يزيد على خمسين ميلا وبتأخر تلك الحملة فى دمياط وتعثرها فى الطريق ذلك الوقت الطويل أتيحت للمسلمين الفرصة بجمعوا شملهم وضموا صفوفهم (١) .

أما الصليبيون فإنهم وصلوا الى شارمساح — وتقع فى منتصف الطريق بين دمياط والمنصورة — ولكى يتقدموا جنوبا وينفذوا فكرة مهاجمة القاهرة كان عليهم أن يعبروا فرع دمياط أو قناة أشموم طناح . فاختار لويس الطريق الأسهل وعمل على بناء سدّ فى عرض النهر الصغير (٢) ، وأنشأ أبراجا متحركة لتحمى الجنود الذين يعملون فى السدّ . غير أن المسلمين بدأوا فى مناوشة هؤلاء الجنود وعبرت فرقة منهم هذا النهر من مكان بعيد وحاولت تطويق مؤخرة الجيش الصليبى فطاردها الملك لويس ولكن معسكره على الرغم من ذلك كان معرّضا للخطر من جميع الجهات (٣) .

وفى تلك الأثناء تقدّم أحد أهالى بلدة سلامون وعرض على الصليبيين أن يدلهم على مخاضة كبيرة جهة أشموم طناح فى مقابل مبلغ من المال (٤) . فاستخدمه الملك لويس دليلا ، وسير فرقة الخيالة على ثلاث دفعات : أولها الفرسان الداوية . وثانيها الخيالة الرماة وعلى رأسها روبرت كونت أرتوا (Robert Count d'Artois) (أخو الملك لويس) . وثالثها فرقة الملك (٥) .

---

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages pp. 232-233

(٢) ويعرف الآن باسم البحر الصغير .

(٣) Stanley Lane-Poole, Op. Cit. p. 234.

(٤) Davis, The Invasion of Egypt by Louis IX of France, p. 38.

(٥) Stanley Lane-Poole; op. cit. p. 234.

لم يلق الصليبيون مقاومة وهم يعبرون النهر أوّل الأمر . غير أن روبرت كونت أرتوا بمجرد عبور الفرقة الثانية عزم على التقدّم للحاق بالعدوّ ثم اقتحم معسكر المسلمين ، فاخترقه من مقدّمته الى مؤخرته وتمكن بعض الفرسان من قتـل القائد فخـر الدين فانهزم المسلمون وتفرّقوا . ثم دارت الدائرة على الصليبيين ، فقد ثبتت فرقة المماليك أمام هذا الهجوم العنيف وحالت بينهم وبين ما أرادوا من الإستيلاء على قصر السلطان . وكان قائد تلك الفرقة بيبرس الذى انقض عليهم وقلب نصرهم هزيمة واندفع جنود الصليبيين فى شوارع المنصورة وسقط كثير منهم قتلى من بينهم الكونت أرتوا وفرقته .[1]

أما بقية الصليبيين فلحقت بالملك لويس عند السدّ الذى كان قد شرع فى بنائه على النهر الصغير . وقد عرض نفسه بموقفه هذا لهجوم الفرق المملوكية التى أحاطت به وأصبح من الصعب عليه أن يهزم جيش المسلمين وخاصة بعـد أن فقد كثيرا من فرسانه ولم يبق معه إلا الجنود المشاة الذين لا يستطيعون الحرب إلا بالسيوف .

وعندما أصبح مركز لويس حرجا فكر فى بنـاء جسر مؤقت على الجـزء الذى لم ينته من السدّ . ولمـا تم بناؤه استطاعت فرقة من الضفة الأخرى أن تأتى لنجدته ، غير أن النجاح فى بنـاء هذا الجسر لم يغير شيئا من موقف جيش لويس فلم يمهله المسلمون حتى عاودوا الهجوم عليه موجهين همهم نحو هذا الجسر فى الوقت الذى لم يكن لهم سلطان يأتمرون بأمره . فقد توفى الملك الصالح فى نوفمبر سنة ١٢٤٩ م عندما بدأ الصليبيون يتقدّمون نحو المنصورة . وكان ابنه وولى عهده الملك المعظم تورانشاه بعيـدا عن مصر بحصن كيفا[2] فرأت زوجه شجرة الدر أن تخفى وفاته حتى لا يتطرّق الوهن الى نفوس المسلمين فيفرون من ساحة القتال اذا علموا بموت

(١) Stanley Lane-Poole, Op. Cit. pp. 234-235 ; Davis, The Invasion of Egypt by Louis IX of France pp. 38-39.

(٢) Stanley Lane-Poole, Op. Cit. pp. 236-237.

السلطان وبذا يتم للصليبيين الاستيلاء على الديار المصرية ، وأحضرت الأميرين فخر الدين والطواشى جمال الدين محسن وهما من حاشية السلطان وخاصته وأسرت اليهما بموت الملك الصالح واتفقت معهما على القيام بتدبير شئون الدولة حتى يحضر ابن زوجها تورانشاه من حصن كيفا[1] . فأخذ الأمير فخر الدين يصدر الأوامر مذيلة بتوقيع السلطان الملك الصالح ، وقد قيل إنها كانت بخط خادم يقال له سهيل يشابه توقيعه توقيع الملك . ولما وقف حسام الدين نائب القاهرة على حقيقة الأمر وعلم بوفاة السلطان اشتد خوفه من الأمير فخر الدين فكتب الى تورانشاه يطلب منه التعجيل بالحضور ، كما أمر الخطباء بأن يدعوا على منابر القاهرة يوم الجمعة لتورانشاه بعد الدعاء لأبيه الملك الصالح[2] .

ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى قدم تورانشاه الى مصر . فنزل بقصر السلطنة بالمنصورة وسلمته شجرة الدر مقاليد الأمور فأخذ يشرف على الحرب بنفسه ويدبر خطتها برأيه الصائب ونظره الثاقب واستطاع بذلك أن يختم واقعة المنصورة بنصر على الصليبيين . وكان أول ماقام به من الأعمال أن نقل أسطولا[3] من المراكب على ظهور الجمال الى نقطة على فرع دمياط شمالى المراكب الفرنسية . وهناك اشتبك الأسطولان المصرى والفرنسى ودارت الدائرة على الأخير بعد أن خسر كثيرا من مراكبه .

ساء مركز لويس بعد هذه الهزيمة اذ لم يصبح لديه من القوى ما يستطيع بها مقاومة تقدم المسلمين وكذلك لم يبق لديه من الميرة ما يعينه على الوقوف أمام المصريين والمماليك . فضاقت الوسائل بالصليبيين وثارت نفوس الجند من قلة الأزواد

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٤٣ — يقع حصن كيفا على الضفة الغربية لنهر دجلة بالقرب من آمد .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٤٤ — ٣٤٥

(٣) حملت هذه المراكب من سمنود الى القناة التى تعرف الآن باسم بحر شبين Davis, Invasion of Egypt By Louis IX of France p. 46

وتفشى فيهم الوباء وظل الملك لويس صابرا لا يجد وسيلة تخلصه من هذا المأزق ؛ فاضطر الى طلب الهدنة وتسليم دمياط على أن يأخذ الصليبيون القـدس وبعض بلاد السـاحل . فأبى عليهم المصريون ذلك . فأحرق الصليبيون أخشابهم وأتلفوا مراكبهم ولجأوا الى التحصن فى دمياط . فركب المسلمون أقفيتهم وحاربوهم حتى أوصـلوهم الى فارسكور ؛ وهناك حملوا على الفريخة حملة صادقة[1] واستماتت المماليك فى الدفاع بقيادة بيبرس حتى أزاحوا الصليبيين عن موقفهم وقتلوا منهم عددا كبيرا ، كما أسروا كثيرا من الأمراء والجنود وامتلأت أيديهم بالغنائم من السلاح والخيول وغير ذلك[2] .

أما لويس فإنه التجأ مع بقية جيشه الى تل منية عبد الله بالقرب من المنصورة واعتصموا به ؛ فتبعهم المسلمون وشدّدوا عليهم الحصار فاضطروا الى التسليم على أن يؤمنوا على حيـاتهم . وكان يبلغ عددهم خمسـة آلاف معظمهم من الفرسان والأشراف ، وسيق لويس معتقلا الى دار القاضى ابراهيم بن لقمان بالمنصورة[3] ثم أفرج عنه بعد أن دفع مبلغا كبيرا من المـال وبعد أن تم الاتفاق معه على إخلاء دمياط[4] .

علت كلمة المـاليك البحرية وعلى رأسهـم بيبرس واشتد أزرهم بهـذا النصر المبين الذى أحرزوه فى موقعـة فارسكور . وحينئذ نراهم يضمرون السوء لسلطانهم توران‌شاه حين قرب أيبه مماليكه وحاشيته الذين جاءوا معه من حصن كيفا وأحلهم محل مماليك أبيه البحرية فى مناصب الدولة ، ولتضييقه على زوجة أبيه شجرة الدر وتوعده لها ان لم تقترّ له بمـال أبيه . فلما ضاق بهـا الصدر وعيل منها الصبر أرسلت الى المـاليك تقول لهـم " اقتلوا توران‌شاه وعلىّ رضاكم " . فصادف قولها هذا هوى

(١) Stanley Lane-Poole, Op. Cit. p. 238.

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٥٥ — ٣٥٦

(٣) تعرف الآن بسجن لويس و يقصد اليها كثير من السياح والزائرين وقد نقش على بابها تاريخ أسر لويس بها .

(٤) Davis, Op. Cit. pp. 51.57

فى نفوس المماليك، وزاد الطين بلة والطنبور نغمة ما كان يبلغهم عنه أنه اذا ثمل من الخمر يضع أمامه الشموع مصفوفة ويتناول بيده السيف ويضربها به واحدة بعد أخرى وهو يقول "هكذا أفعل بالمماليك البحرية" ويذكر أسماءهم واحدا بعد آخر. كل هذه الأمور أحفظت نفوسهم وأوغرت صدورهم وضاقوا بتحملها ذرعا. فأجمعوا رأيهم على الفتك به وتولى أمراؤهم تنفيذ ماعتزموا عليه بزعامة بيبرس ومعه من الأمراء قلاوون الصالحى وأقطاى الجامدار وأيبك التركمانى وغيرهم.

فلما أقيم السماط على أثر نزول تورانشاه بفارسكور سنة ٦٤٨ هـ تقدم إليه هؤلاء البحرية وبأيديهم السيوف فبادره ركن الدين بيبرس بالسيف على أصابعه فقطعها وتبعه فى ذلك الأمراء، ففر تورانشاه هاربا ودخل برجا من الخشب كان قد أعده على النيل ليجلس فيه أيام إقامته بفارسكور، وأغلق عليه بابه فأدركه بيبرس ومن معه وأضرموا النار فى البرج فألقى بنفسه فى النيل وأخذ يسبح طالبا النجاة بنفسه. فلم يغنه ذلك شيئا ورموه بالنشاب من كل ناحية وهو يستغيث ولا مغيث وينادى ولا مجيب ويقول "خذوا ملككم ودعونى أرجع الى حصن كيفا"، فلم يلتفت أحد الى قوله ولم يجد من يدفع عنه مخالب الموت وينجيه من القتل وانتهى أمره بأن مات قتيلا غريقا حريقا. ولما أيقنوا من وفاته انتشلوا جثته من النيل وتركوها على شاطئه ثلاثة أيام. ولم يجرؤ أحد من حاشيته على دفنه ثم وورى التراب فى مكانها[1].

بذلك انتهت حياة تورانشاه دون أن يجلس على عرش آبائه أو يدخل القاهرة مقر حكمهم. وبقتله انتهى حكم الأيوبيين بالديار المصرية وابتدأ عصر المماليك[2].

(١) المقريزى السلوك: ج ١ القسم الثانى ص ٣٥٨ — ٣٦٠؛ أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، ج ٣ ص ١٨١

(٢) Stanley Lane-Poole, Op. Cit. p. 239.